

إسهامات التلمسانيين في المجالين الاقتصادي والديني بالسودان الغربي

د. / لطيفة بشاري زوجة بن عميرة
أستاذة محاضرة - قسم التاريخ - جامعة الجزائر 2

يربط التجار بين شعوب مختلفة ثقافيا، فيحملون سلعا منها ما يغير من عادات الناس إيجابا وسلبا. وكان التلمسانيون، كغيرهم من المغاربة، يتولون بلاد السودان الغربي ببضائع مختلفة، فلاحية وحرفية، محلية ومستوردة، تركت أثرا واضحا في حياة سكان تلك البلاد، في جميع الميادين، خاصة الاقتصادية منها.

كما ولج معهم المنطقة بعض الفقهاء، والدعاة، والمعلمين، حاملين معهم ديننا جديدا، غيروا بنشره الحياة الروحية لسكان المحطات التجارية، والحواضر. ويرمي هذا البحث إلى إجلال إسهامات التجار والفقهاء التلمسانيين في المجالين الاقتصادي والديني.

أولا: إسهامات التلمسانيين في المجال الاقتصادي بالسودان الغربي:

أدرك أمراء بني عبد الواد، أهمية التبادل التجاري، مع بلاد السودان الغربي منذ وقت مبكر. لاعتقادهم أن ثروة الدولة تكمن في امتلاك أكبر كمية من الذهب. وهو تفكير كان سائدا في العصور الوسطى⁽¹⁾. وللاقتراب من مصدر هذا المعدن الثمين، حاول الأمير يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1283م)، الاستيلاء على سجلماسة، محطة القوافل الرئيسية، في طريق جنوب الصحراء. ودخل في صراع مع المرينيين، من أجل السيطرة عليها. فاستولى عليها سنة 662هـ/1242م. لكن الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني احتلها في صفر

1- أنظر: Coudray: Les relations commerciales de Tlemcen avec le Sahara et le Soudan, dans Bulletin de la société de géographie d'Alger, 2eme année, 1887, p.253

سنة 673هـ/1274⁽¹⁾.

وكان أبو حمو موسى الأول (707 - 718هـ/1307 - 1318م)، يعرف، أيضاً، أهمية التجارة مع بلاد السودان الغربي، ويبدو ذلك من قوله: «لولا الشناعة، لم أنزل في بلادتي تاجراً من غير تجار الصحراء، الذين يذهبون بحبيث السلع، ويأتون بالثبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إلينا بما يضمحل عن قريب ويذهب، ومنه ما يغيّر من العوائد، ويجرّ السفهاء إلى المفاسد»⁽²⁾.

كما كان أمراء بني عبد الواد، يرأسلون ملوك مالي. وكان بعض رجال البلاط يتقرّبون منهم، فقد ارتبط هلال القطلاني، حاجب أبي تاشفين الأول (718 - 737هـ/1337 - 1318م) بصداقة مع منسى موسى، ملك مالي عندما التقى به في موسم الحج بمكة⁽³⁾. وقد يكون هذا الارتباط ناتجاً عن ازدهار العلاقات التجارية بين بلديهما، كما كانت له، ولا شك، نتائج إيجابية بعد ذلك، في الميدان التجاري. ولهذا شجع أمراء بني عبد الواد تجار بلادهم على ولوج السودان الغربي بالسلع، التي كانت تنتج في الإمارة، وتلك التي كانت تستورد من المناطق المجاورة، خاصة من مدن جنوب غرب أوروبا. وحرصوا على توفير الظروف الملائمة للحفاظ على تلك العلاقات التجارية مع السودانيين فقامت الدولة، عندما كانت في أوج قوّتها، ببناء أبراج المراقبة، في النقاط الإستراتيجية، من الطرق الشمالية. كما كانت تدفع مبالغ من المال للقبائل المنتشرة حول هذه المسالك حتى تحرسها، وتضمن الحماية الضرورية للتجار⁽⁴⁾. ولما ضعفت الدولة فقد الأمن، في ربوعها، فقد ذكر الحسن الوزان (Léon l'Africain)، في بداية القرن العاشر

1 - عندما استولى يغمراسن على سجلماسة، ولّى عليها ولده يحيى. وبعده ابن أخيه عبد الملك بن محمد المزيّد من التفاصيل حول هذا الموضوع. أنظر: ابن خلدون، العبر ط. بيروت، 1959، مج 7، ص 176-175.

2 - المقرّي (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني، المالكي، شهاب الدين): كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. طبعة القاهرة، ج 7، ص 131-132.

3 - أنظر: Coudray, op.cit, p247 : عن رحلة منسى موسى إلى الحج (أنظر: Omari (Ibn Fadhl-Allah): Masalik al-Absar fi mamalik al-amsar, T.1 L'Afrique moins l'Egypte, Traduit et annoté par Gaudetroy-Demonbyne, Paris, 1927, pp.70sq

4 - أنظر: Léon L'Africain: Description de l'Afrique, nouvelle édition, traduite de l'Italien par A. Epaulard, Paris VI, 1956, T.2, P.326

المهجري (السادس عشر الميلادي) «أنه من النادر إيجاد بعض الطرق المضمونة في هذا البلد»⁽¹⁾.

وكان التجار ينظمون أنفسهم، ويخرجون في قوافل، ربما وصل عدد جمال القافلة الواحدة إلى اثني عشرة ألفاً⁽²⁾. فيقطعون الصحراء ليصلوا بسلعهم إلى بلاد السودان الغربي. وبما أن الرحلة طويلة، إذ كانت تدوم حوالي شهرين، فإن التجار كانوا يتزلون في محطات للراحة. وأهمها،

تغازا: وتقع جنوب سحلماسة بحوالي خمسة وعشرين يوماً، وتسمى مدينة الملح، لأنه كان يشكل مادة لبناء المنازل بها. وكان يصدر إلى مختلف مدن بلاد السودان⁽³⁾. وإلى الملح يعود فضل إحداث الطريق الذي يمر بها، ليصل بين مدن بلاد المغرب ومدن بلاد السودان الغربي. وكانت مدن الشمال تمولها بما يحتاجه أهلها من مواد غذائية⁽⁴⁾. وقد ضمتها دولة سنغاي سنة 899 هـ (1493 - 1528م)⁽⁵⁾.

ثم تليها أودغست، وهي واحة تقع على إحدى وخمسين مرحلة جنوب سحلماسة⁽⁶⁾، واثنتي عشر مرحلة، شمال غرب غانة⁽⁷⁾. استقطبت طرق التجارة

1 - op.cit,p324.

2 - ابن خلدون. العبر، مج 7، ص 119.

3 - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي): الرحلة المسماة خفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت. دار الكتاب المصري، القاهرة، ص 441.

4 - أنظر: Godinho (V.Magalhaes) : L'Economie de l'Empire portugais aux XVeme et XVIeme siècles, Paris, 1969, p. 106.

5 - أنظر: الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي. وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي. في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر. معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404 هـ/ 1984، ص 79.

6 - البكري (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان. طبعة الجزائر، 1957م، ص 159)؛ و يجعلها القلقشندي ستاً وأربعين مرحلة: (الشيخ أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الأنشأ، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1333 هـ/ 1915م، ج 5، ص 159)؛ أما ياقوت الحموي فيجعل موقعها مرةً على مسيرة شهرين من سحلماسة عن طريق السوس الأقصى و يجعله مرةً أخرى على مسيرة ثَيف وأربعين مرحلة من نفس المدينة في رمال ومفاوز (أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي): كتاب معجم البلدان، طهران، 1965، مج 1، 1، ص 399-400.

7 - الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني المسمى الشريف الإدريسي) وصف إفريقيا الشمالية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صححه ونشره هنري بيريس، طبعة الجزائر، 1957، ص 19.

في تلك المنطقة منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وقد وصف القلقشندي، الذي عاش في آخر القرن الثامن، وبداية القرن التاسع الهجريين، أسواقها بالعديدة⁽¹⁾. ودلت المخلفات الأثرية، التي تم العثور عليها في موقعها، على أنها كانت محطة للقوافل القادمة من الشمال حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)⁽²⁾. ومنذ تلك الفترة، تراجعت، لتحل محلها في النشاط التجاري، إيولاتن⁽³⁾.

وقد تأسست هذه المدينة سنة 1224م⁽⁴⁾، شمال غانة، في طريق القوافل القادمة من بلاد المغرب، على مسيرة حوالي شهرين من سجلماسة⁽⁵⁾. وهي تبعد عن تمبكتو غربا، بحوالي 450 كلم، وعن المحيط الأطلسي، شرقا، بحوالي 900 كلم. وكانت سوقا يقصده التجار المغاربة⁽⁶⁾ عموما. وأغلب سكانها من مسوفة. كانوا يمارسون مهنة أدلاء القوافل التجارية في الصحراء. ويقدمون لها الخدمات الضرورية. وقد استقر بها، في النصف الأول من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، اثنان من أسرة المقرري، هما عبد الواحد، وعلي. واتصلا بسلطان مالي منسى (أي الملك) موسى (1307-1332م)، عندما هاجم المدينة منسى علي، ملك التكرور⁽⁷⁾. وكانت إيولاتن تابعة لمملكة مالي، فأمنهما منسى وسى،

1- القلقشندي، المصدر السابق، ص159.

2- أنظر: Lessard (Jean Michel): Sijilmasa, la ville et ses relations commerciales au XI siècle d'après: El-Bakri, Hesperis Tamuda, Volume 10; fascicule 1-2, 1969, p.25; Devisse (J): Routes et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée, dans Revue d'Histoire économique et sociale, Paris, 1972, no 1, p.366.

Devisse, op.cit, p.366 -3

Godinho (V.Magalhaes): op.cit, p106 -4

5- ابن بطوطة. المصدر السابق. ص442: حسب العمري. فإنه لا يوجد في الصحراء بين سجلماسة وإيولاتن إلا تابلابلالت (Tabelbet ou Tabelbalet) وتفصل هاتين المدينتين مساحة شاسعة تقدر بخمسة عشر يوما ولا يوجد بها ماء أنظر: (Omari Ibn Fadhil-Allah): Op. cit., p. 202.

6- أنظر: Léon l'Africain: Description de l'Afrique, pp.463-64.

7- التكرور. أي بلاد السودان (أنظر: E.I.art.Songhai, T4, p.511: Delafosse (Maurice): وحسب ياقوت الحموي. هي بلاد تنسب إلى بلاد السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج (معجم البلدان. 1. ص86): وحسب (Cuoq Joseph) فإن التكرور إحدى المقاطعات الثلاثة عشر من امبراطورية مالي. تقع على المحيط الأطلسي (أنظر: Histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest, Paris, 1984, p.81) وحسب حسن إبراهيم حسن فإن التكرور إحدى الأقاليم أو الممالك الخمسة التي هي: مالي و صوص وغانة وكوكو و تكرور (انتشار الإسلام في القارة الإفريقية. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثانية، 1964م، ص102).

وشجع تجارهما.⁽¹⁾ وصارا بمونان هذه المدينة بما تحتاجه من بضائع⁽²⁾.

ومنذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وبداية القرن الخامس عشر الميلاديين، أخذت مدينة إيواالتن تضمحل، لأن التجار بدؤوا يتخلون عنها، ويتوجهون إلى تمبكتو وغاو. فأخذ الفقر يغزو إيواالتن شيئاً فشيئاً مما لفت انتباه الحسن الوزان (Léon L'Agricain) في بداية القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري). حيث لاحظ أنها أصبحت مملكة صغيرة متواضعة الإمكانات.⁽³⁾ ثم اضمحلت أكثر في عهد مملكة سنغاي⁽⁴⁾. وحلت محلها مدينة غاو⁽⁵⁾. تقع هذه المدينة في نهاية طريق القوافل التجارية من الشمال، ومن الشرق. وقد تأسست حول آبار ماء، على بعد أربع مائة ميل⁽⁶⁾، جنوب شرق مدينة تمبكتو⁽⁷⁾.

وكانت غاو عاصمة دولة سنغاي، منذ انتشار الإسلام بها، حوالي سنة 1000م⁽⁸⁾، ثم أصبحت تابعة لمملكة مالي، بين سنة 1235م وسنة 1335م. ثم استرجعتها سنغاي بعد ذلك⁽⁹⁾. وهي محطة للقوافل المغربية، التي كانت تأتياها

1 - هاجم منسى علي ملك التكرور إيواالتن في عهد السلطان المالي منسى موسى (1307-1332م) (أنظر: حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق، ص 104؛ cuoq (joseph), op.cit, p91). وهكذا يكون الأخوان المقرى قد تواجدا في المدينة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري). في حين يذكر دهبنة عطاء الله أنهما تواجدا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي

(Les Etats de l'Occident musulman aux XIII XIV et XV siècles, Institutions gouvernementales et administratives, Alger, 1984, p368).

2 - المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني- المالكي شهاب الدين): كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، طبعة القاهرة، جـ 7، ص 110. Description, T. 1, p.463 - 3.

Devisse, Commerce, p.366 - 4.

5 - تسمى هذه المدينة في المصادر القديمة كاو كاو (Kaw Kaw). وكوكو (Koukou). وكانكو (Kankou). وكونكو (Kounkou) (عنها أنظر: Cornevin (R): E.I., art.G ao, T.II, p999, nouvelle édition).

Léon L'Africain , op.cit, T.2, P.470 - 6.

7 - كانت غاو تتكوّن من مدينتين ميزتين الأولى للسلطان وحاشيته. وهي صاني (Sané) وقد عثر بجوارها على نصب ملكية (Stèles royales). يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري). والثانية غاو القديمة (Gao ancien) وتقع في ملتقى تيلمسي (Tilemsi) بالنيجر. وهي خاصة بالتجار (أنظر: Mauny (R): Le Soudan occidental, à l'époque des Empires, dans Histoire générale de l'Afrique noire, Presses Universitaires de France, p.197.

8 - عبد القادر زبادية. مملكة سنغاي في عهد الأسفيقيين 1493-1591م. الجزائر، 1971م. ص 25 وص 108، Mauny, op.cit, p.197.

9 - Cuoq (J), op.cit, p.131; Mauny, Ibid - 9.

من تمبكتو، عندما كانت المواصلات نشطة بين بلادي المغرب والسودان الغربي. غير أن الأوضاع تغيرت في أواخر عهد مملكة سنغاي، فأصبحت المواصلات في الطرق الشرقية أكثر نشاطا، بسبب ازدهار ممالك الهاوسا. فصارت القوافل تصل تمبكتو عن طريق غاو⁽¹⁾.

ويتضح من بقاياها الأثرية أنها كانت سوقا للسلع من مختلف الجهات⁽²⁾. وكان أغلب سكانها من التجار الأثرياء، الذين يتنقلون باستمرار ببضائعهم⁽³⁾. كما كان يقصدها عدد كبير من سكان الجنوب، ومعهم كميات هامة من الذهب، لشراء البضائع المستوردة، من الشمال، سواء من المغرب، أو من أوروبا⁽⁴⁾.

أما مدينة مالي فهي عاصمة الدولة المالية. وقد أصبحت مركزا تجاريا هاما، في بلاد السودان الغربي، ومحطة للقوافل التجارية العابرة للصحراء. وقد عليها التجار المغاربة، والمصريون، قبل نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). فكانوا يدخلونها برخصة، ويسكنون أحياء خاصة منها. ويرأسهم شيوخهم⁽⁵⁾، وكان يرأس التجار التلمسانيين، عندما زارها ابن بطوطة، الفقيه سعيد بن علي الجزولي، كما كان يقيم هناك صهره عبد الواحد المقري. وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان⁽⁶⁾.

ووفر حكام مالي الأمن في ربوع البلاد، لتشجيع التجارة بين الشمال والجنوب⁽⁷⁾. «فلا يخاف المسافر، في مالي، ولا المقيم، سارقا ولا غاصبا»⁽⁸⁾: حتى أصبح التجار يستطيعون السفر في أعداد قليلة، لا تتعدى ثلاثة أو أربعة مسافرين⁽⁹⁾. كما نظم حكام مالي الضرائب على الواردات والصادرات، فامتألت

1 - أنظر الشيخ الأمين عوض الله. المرجع السابق، ص 83

2 - Mauny (R): Tableau géographique de l'ouest africain au moyen-âge, Dakar, 1961, p.499

3 - Léon L'Africain , op.cit., T.2, 470

4 - Coudray: op.cit, p.253

5 - Coudray, op.cit., p.251, 444: ابن بطوطة. الرحلة، ص

6 - ابن بطوطة. نفس المصدر

7 - Léon L'Africain, op.cit., p.466: الرحلة

8 - ابن بطوطة. المصدر السابق، ص 450

9 - Coudray, op.cit, p.466

خزينة الدولة، وازدهرت البلاد. وتطورت بها الزراعة، وكثر عدد حرفييها، خاصة في العاصمة⁽¹⁾. واحتفظت بقوة إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، حيث تدهورت أحوالها⁽²⁾.

وفقدت مدينة مالي أهميتها، بعد سقوط الدولة وأصبحت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) قرية صغيرة⁽³⁾.

وقد ساهمت تجارة القوافل في ازدهار الحياة الاقتصادية، فنمت المحطات التجارية، التي لم تعد أن تكون مكانا يستريح فيه التجار، أثناء سفرهم، فأصبحت أسواقا يتم فيها تبادل البضائع، والبيع والشراء، وزادت نموًا فالتسعت رقعتها الجغرافية وأقبل الناس إليها، فسكنوها، وزاد عمرانها، حتى أن البعض يرى في وصول القوافل التجارية إلى بلاد السودان الغربي، ونزول التجار بها، سببا في تحول بعضها إلى حواضر لدول كبيرة مثل مالي وسنغاي.

كما قامت بين الأشخاص الذين يتزلون تلك المدن، ويؤمّن أسواقها، صلات متينة، في بعض الأحيان، إلى درجة أن بعض العائلات التلمسانية استقرت هناك مثل العقبايين، والمرازقيين. وبعض التجار صاهروا العائلة المالكة في بلاد السودان، مثل ابن الفقيه الجزولي الذي تزوج ابنة عم السلطان. وهكذا تحولت بعض المحطات المتباعدة إلى مناطق جذب بشري، ومراكز إشعاع حضاري خاصة في عهد دولة مالي ودولة سنغاي. وكان للتجار التلمسانيين إسهامات كبيرة في ذلك كله.

وبفضل تشجيع السلطات بتلمسان، اشتغل عدد كبير من سكان العاصمة والمدن الأخرى في الإمارة بالتجارة الخارجية، ومن أشهر الذين سجلت الكتب أخبارهم، الإخوة المقرري الخمسة الذين استطاعوا أن يجمعوا ثروة كبيرة، في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)⁽⁴⁾. وكانت لهم علاقات مع ملوك عصرهم

1- Léon L'Africain, op.cit,p.466

2- Labouret(H): E.I.,t.4,art.Mali; p.216

3- أنظر: الشيخ الأمين عوض الله. المرجع السابق ص 82.

4- المقرري المصدر السابق جـ 7، ص 130.

في كل من تلمسان، وبلاد السودان الغربي. وقد كَوَّنوا شركة تجارية عائلية «فَعَقَدُوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال. فكان أبو بكر ومحمد بتلمسان، وعبد الرحمن، وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهم الصغيرين بإيواالتن... وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث له الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر. والسجلماسي... بقدر الخسران والرجحان، ويكاتبهما بأحوال التجارة وأخبار البلدان»⁽¹⁾. ويحتوي هذا التنظيم، كما يلاحظ، على أسس الشركات الكبيرة اليوم؛ خاصة فيما يتعلق بدراسة حاجة المنطقتين، تلمسان وبلاد السودان، والاهتمام بالعرض والطلب، ومعرفة أحوال الأسواق.

وقد تعامل الاخوة المقرري مباشرة مع ملوك مالي، الذين أحسنوا استقبالهم وشجعوهم على ممارسة التجارة في بلادهم. وتبادلوا الرسائل مع منسى موسى، الذي خاطب بعضهم «بالصديق الأحب والخالصة الأقرب»⁽²⁾. كما كان يطلب منهم تزويده بما يحتاجه من بضائع. وهذا معناه أن الإخوة المقرري كانوا همزة وصل بين أمراء تلمسان وملوك السودان الغربي في مجال التجارة.

وقد اتخذ منهم عبد الواحد وعلي، الذين استقروا بإيواالتن. بمن معهما «الحوائط والديار، وتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء...»⁽³⁾، تماما كما كان يمكنهم أن يفعلوا في بلدهم، أو في أي مكان آخر من دار الاسلام، وليس شرطا أن زواجهم، في تلك الأقطار، من بلاد السودان، كان لغرض تسهيل العمليات، والصفقات التجارية كما كان يرى Coudray⁽⁴⁾.

إلى جانب عائلة المقرري، اشتهرت عائلات تلمسانية أخرى، بالتجارة مع بلاد السودان، مثل عائلة العقباني -وعائلة المرازقة وكانت لهما أيضا علاقات حسنة مع أمراء تلمسان وملوك بلاد السودان الذين شجعوهم على ممارسة التجارة

1- نفس المصدر، ص 131-130.

2- نفس المصدر ص 132.

3- المقرري، المصدر السابق، ص 7، ص 132.

4- op.cit., p.247

في بلادهم، واستقروا هم أيضا هناك.

كما التقى ابن بطوطة، أثناء رحلته، بعدد من التجار التلمسانيين، كانوا يقيمون بمالي، ذكر منهم: الفقيه الجزولي الذي كان شيخ التلمسانيين بها، كما كان يساعد التجار والمسافرين المغاربة؛ فقد اكرى دارا لهذا الرحالة هناك. كما التقى بصهره الفقيه عبد الواحد المقرئ، والشيخ اللبان التلمساني، الذي كان مقربا من منسى موسى⁽¹⁾.

وكان بعض التجار التلمسانيين من المتجولين، فقد رافق ابن بطوطة في رحلته تاجر من تلمسان يدعى زيان⁽²⁾.

وكان التجار التلمسانيون، حسب شهادة الحسن الوزان (Léon L'Africain) رجالا «عدولا، مخلصين، ومستقيمين، في تجارتهم»⁽³⁾. فهذه الشهادة إن صحت، تجعلهم يشذون عن الرأي الذي توصل إليه ابن خلدون في مقدمته، وملخصه أن مهنة التجارة تفرض على التجار سلوكا معينا، يبعدهم عن الفضائل⁽⁴⁾. هذا من جهة وتجعلهم من جهة أخرى، يتميزون عن غيرهم. وربما كانت هذه الصفات هي السبب في تقرب ملوك السودان الغربي منهم، واستقبالهم في حواضرهم ومصاهرتهم.

كما كان العرب المقيمون بالمغرب الأوسط، من ذوي عبيد الله، من المعقل، وبني عامر، من زغبة، يمارسون التجارة مع بلاد السودان. وكان ذوو عبيد الله يقومون برحلة في شتاء كل سنة، من بلادهم الواقعة قبلة (جنوب) تلمسان⁽⁵⁾. فيتوجهون إلى قصور توات، ويتزلون، غالبا، في تمنطيت، ومنها يسافرون إلى أرض السودان⁽⁶⁾.

1 - ابن بطوطة، الرحلة، ص444، عن منسى موسى (أنظر:

Mauny(R.): Le Soudan occidentak à l'époque des empires, p195; Cuoq (J), op.cit, p79

2 - ابن بطوطة، الرحلة، ص444 فما بعدها.

3 - Description, T.2, p.334

4 - ابن خلدون، المقدمة، ج3، ص91.

5 - ابن خلدون، العبر، مج7، ص119

6 - نفسه: حسب مصطفى أبو ضيف، فإن التجار كانوا يعتمدون على حماية بعض فرسان ذوي عبيد الله.

وقد استمرت الحركة التجارية نشطة، بين المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). ولما بدأت العلاقة التجارية تضعف، تأثر ازدهار الممالك السودانية، الذي كان قائما عليها إلى حد كبير، حتى أن سلطان بورنو⁽¹⁾ بعث رسالة إلى علماء توات، يشكوهم فيها قلة عدد التجار، الذين يقصدون بلاده، كما كانوا يفعلون من قبل⁽²⁾.

ومع ذلك فإن الحركة التجارية لم تتوقف تماما، بل نشطت من جديد، في عهد مملكة سنغاي، التي أصبح ملوكها، يهيئون الظروف الملائمة لاستقبال التجار في بلادهم، ويوفرون لهم الأمن، ويسقبلونهم في قصورهم⁽³⁾. وأصبحت توات أهم منطقة تنطلق منها القوافل إلى بلاد السودان. وتكاثر عدد التجار التواتيين في تمبكتو، وغاو، خاصة أيام الأسقيا الحاج محمد الأول (1493-1528م). وقد التقى ببعضهم محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، عندما زار مملكة سنغاي سنة 907هـ/1502م⁽⁴⁾.

وكان التجار التلمسانيون يصدرون مواد كثيرة إلى بلاد السودان منها الفلاحية، والحرفية. فقد كانوا يبيعون هناك المنسوجات القطنية، حتى أصبح أغلب لباس سكان مملكة سنغاي منه⁽⁵⁾. كما راجت في تلك البلاد أنواع من الأقمشة من نوع ممتاز، تصنع بمدينة تلمسان، لحمتها من الحرير الطبيعي، وسداها من القطن، اختصت بها الطبقة الحاكمة. وصنع منها ملوك مالي لباسهم، وكساء خيامهم وخاط منها القضاة، والتجار، والأغنياء، عمائمهم، وجباهم، وكفنوا بها موتاهم⁽⁶⁾. وكان الموسرون السودانيون يقبلون على اقتناء الحرير الذي يحمله لهم

«في الجزء الأخير من الطريق نظرا لطوله. من ناحية. وكبر حجم قوافلهم من ناحية أخرى. القبائل العربية. في المغرب في عصري الموحدين و بني مرين. الجزائر. 1982 م. ص 324.

1- عن بلاد بورنو أنظر: ابن بطوطة. الرحلة. ص 454.

Whitting (J) : E.I, art; Bornu, T.1, p1297; Léon L'Africain, op.cit, T.2,480

2- أنظر: زبادة عبد القادر المرجع السابق ص 213.

3- نفسه.

4- أنظر: Mauny(R) , op. cit., p.373

5- زبادة عبد القادر المرجع السابق ص 213.

6- أنظر: Léon L'Africain, op.cit,T.2; p.328.

التلمسانيون، وهو مستورد من البندقية وجنوة⁽¹⁾.

وكانوا يسوّقون العطور في السودان فيشتريها السكان بجميع فئاتهم⁽²⁾. وكذلك الأدوات الزجاجية كالأكواب والحلي فإنّها وجدت رواجاً هناك⁽³⁾.

وكان ملوك السودان يقلدون الأمراء المغاربة في تنظيم الجيش، وتسليحه، فيقبلون على شراء الأسلحة⁽⁴⁾ المستوردة أو المصنوعة ببلاد المغرب. وكان التلمسانيون يبيعون لهم الرماح، والسيوف، واللجم⁽⁵⁾، وكذلك الخردوات كحلق الأبواب⁽⁶⁾، ومواد أخرى كثيرة كالقمح والسروج، والخيل.

هذا وقد اقتبس السودانيون من المغاربة النظام المالي الإسلامي. فأقامت السلطات هناك بيت المال، وكانت إيراداته تتمثل في الزكاة، والعشور، والخراج. وعيّنوا عمالاً يسهرون على جمعها في الوقت المحدد، ويتولون العقوبات على المتأخرين عن دفعها. وقد استعان الأسقيا الحاج محمد الكبير بالإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ليوضح له أحكام المال وكيفية إدارة بيت المال، ووجه صرف مداخله.

كانت هذه إسهامات التلمسانيين في المجال الاقتصادي، باختصار شديد، فما هي إسهاماتهم في المجال الديني؟

ثانياً: إسهامات التلمسانيين في المجال الديني ببلاد السودان الغربي.

انتشر الإسلام في السودان الغربي على يد التجار، وبفضل هذا الدين تسربت العلوم الإسلامية، ودخلت عناصر عديدة من المدنية تلك البلاد.

فقد بدأ الإسلام يصل إلى الأطراف الشمالية لبلاد السودان، منذ القرن

1 - أنظر: زبادة، سنغاي، ص221.

2 - أنظر: Dhina : les Etats de l'Occident, p.494.

3 - ابن بطوطة، الرحلة، ص443.

4 - نفسه: زبادة، ص المرجع السابق، ص219.

5 - عن صناعة الأسلحة في تلمسان(أنظر: ابن خلدون، يحيى، بغية الرواد، ج2، تحقيق ألفرد بل، طبعة الجزائر، 1910م، ص161).

6 - زبادة، المرجع السابق، ص219.

الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وزاد اتساعا في عهد المرابطين، الذين فتحوا هذا الإقليم أمام المغاربة. فأثّر التجار والدعاة؛ لكن عددهم، في القرون الأولى، كان قليلا. فلم تسفر جهودهم على تغلغل الإسلام، في جميع الأوساط، وفهمه الفهم الصحيح. وبمرور الزمن، زاد عدد رواد بلاد السودان، فعرفت حركة انتشار الإسلام أوجها في القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين). ففي هذه الفترة تضاعف عدد التجار من المغرب الأوسط، ومن المغريين الأدنى والأقصى، الذين يقصدون تلك البلاد. كما نزل بها فقهاء، عُرفوا بعلمهم الغزير، وقوة حجّتهم، وقدرتهم على إقناع الملوك، والعمّاء، على حدّ سواء من أمثال محمد بن عبد الكريم الغيلي التلمساني، وسعيد بن علي الجزولي، والشيخ اللبان، وغيرهم. فاعتنقت قبائل عديدة الإسلام في مملكتي مالي، وسنغاي، وتأكّد إسلام من سبقوهم إلى ذلك⁽¹⁾.

وكان ملوك مالي وسنغاي يستقبلون التجار المغاربة ويسمحون لهم بإقامة بيوت لأداء الصلاة، فانتشرت المساجد، والمصليات. وإن كانت عبارة عن غرف بسيطة مبنية من العيدان والقش، أو هي مساحات مربعة أو مستديرة، محاطة بحجارة تفصلها عمّا حولها من أراضي⁽²⁾. وزاد عددها منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، لأن الإسلام اتسع، وعدد المسلمين تضاعف. وقد لاحظ ابن بطوطة أن سكان مالي كانوا يحافظون على صلاة الجماعة في المساجد والمصليات، بالمدن التي زارها⁽³⁾.

ففي يوم الجمعة تكتض المساجد بالمصلين على حدّ قوله. وإذا لم ييكر الإنسان إلى المسجد لا يجد مكانا يصلّي فيه، ويضطر من تأخّر إلى إرسال غلامه بسجّادته «فيسطها له. بموضع يستحقّه»⁽⁴⁾.

1- رأى ابن بطوطة، عند زيارته مدينة مالي أن البنات والجواري يظهرن للناس عرايا. دون حرج. كما سجل الكثير من مظاهر الشعوذة (أنظر: الرحلة، ص450). ولاحظ محمد بن عبد الكريم الغيلي أن الشعوذة كانت سائدة بين الناس في تلك البلاد (أنظر: أسئلة الأسقيا وأجوبة الغيلي. تقديم وحقيق عبد القادر زبادية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، 1974، ص 45-46).

2- أنظر: قدّاح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، ط. القاهرة 1975م، ص112.

3- ابن بطوطة، المصدر السابق، ص447 وهنا وهناك.

4- نفس المصدر، ص450.

وكان السودانيون يواظبون على الصلوات، ويجبرون أولادهم على أدائها وإذا لم يفعلوا، يضربونهم.

وفي أيام العيد (عيد الفطر، وعيد الأضحى)، يلبسون الثياب البيض عند قدومهم إلى المسجد «ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله.. وشهد به الجمعة»⁽¹⁾.

كما كانوا يولون عناية خاصة بالقرآن الكريم. فيلزمون أولادهم بحفظه، وإذا لاحظوا تقاعسا منهم، عاقبهم، وقيدوهم «ولا يفكهم (القيود) حتى يحفظوه» حسب قول ابن بطوطة، الذي أضاف «ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن»⁽²⁾.

كما حظي الفقهاء بمكانة هامة لدى ملوك السودان، فكانوا يقرّبونهم، ويعتمدون عليهم في كل ما يعرض لهم من مسائل، ويصلونهم. ومن التلمسانيين الذين استقروا في مدينة مالي، وعاشوا في كنف ملك البلاد الفقيه سعيد بن علي الجزولي، وابنه محمد، والفقيه عبد الواحد المقرئ⁽³⁾.

كما كان ملوك بلاد السودان ينصبون قضاة مغاربة، في الخواضر، يفصلون في قضايا الناس، طبقا للنصوص الشرعية، ولمذهب مالك بالتحديد. وكانوا يقرّبونهم، ويطلبون منهم النصيحة. وبالمقابل، عُرف هؤلاء بعلمهم ونزاهتهم، وورعهم، وإخلاصهم، وحسن أدائهم. فنالوا حظوة كبيرة في المجتمع السوداني.

وحرص ملوك مالي، وسنغاي، على دعوة العلماء من المغرب الأوسط والمغربين الأدنى، والأقصى، لتعلقهم بالاسلام، ورغبتهم في معرفة الأحكام الشرعية، ومحاولة تطبيقها. وكان هؤلاء يتوجهون إلى هناك، إما للتجارة، أو فرارا من الأوضاع السياسية المتردية في أوطانهم. فيتزل بعضهم لفترة تقصر أو تطول،

1- نفسه.

2- نفسه.

3- نفس المصدر ص 444.

كما فعل محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، ومنهم من يستقر هناك مثل سعيد بن علي الجزولي، وابنه محمد، والشيخ اللبان، وابنه، والعقبانيون، والمرازوقيون، وكانوا أشهر من تقدّم في الدراسات الفقهية في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بتلمسان⁽¹⁾.

أما محمد بن عبد الكريم المغيلي، فقد نزل على ملك كانو، وألف له رسالة «في الامارة وشروطها». طرح فيها أفكاره حول الحكم الصالح، ووضح له فيها واجبات الأمير المسلم⁽²⁾.

ثم دعاه ملك غاو، الأسقيا الحاج محمد الكبير، ليساعده على تقويم سلوك الرعية، وإصلاح حالها، والتخلص من الأدران التي أفسدتها. فالعلماء كانوا أكثر اتصالا بالعامّة، ولهم تأثير كبير عليهم.

ولما حضر المغيلي استقباله الأسقيا، وقرّبه، وأكرمه، و«كتب له أسئلة ترجاه الإجابة عليها وفق الوجهة الشرعية في الإسلام»⁽³⁾. وأجاب عنها، وأفاض، بحيث تطرق إلى أمور، لم تتضمنها الأسئلة، لاطلاعه الواسع على أحوال الناس بتلك البلاد. وأدلى برأيه فيها، ووضّح الأحكام الشرعية، الخاصة بها، معتمدا في كل ما كتبه على القرآن والسنة⁽⁴⁾.

وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، قوي الشخصية، لا يخاف في الله لومة لائم يدلي برأيه بصراحة، فحاول التصدي للفساد، والخروج عن الدين، على مستوى الأمراء، والملوك، أولا، فعمل على اقناع ملك سنغاي بالتخلي عن أعمال السخرة، لأنها وسيلة استغل بها أصحاب السلطة الضعفاء، بدون رحمة، والحاكم في نظر المغيلي يجب أن يكون مرشدا في قومه، وموجها لهم؛ لذلك عليه

1- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (20-16م). وهو بحث في تيارات الثقافة، ومؤثراتها، ومؤسساتها، وظواهرها، رجالها. في العهد العثماني: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط. 2، 1985م، ج. 1، ص. 32؛ وعن العقبانيين (أنظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد): كتاب خفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر في

Bulletin des études orientales, tome XIX, année 1965-1966, Institut Français de Damas, Damas, 1967, P. 7.

2- المرجع السابق، ص. 47.

3- محمد بن عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص. 9.

4- أنظر التفاصيل في المصدر السابق، ص. 21 فما بعدها.

أن يبتعد عن ظلمهم. كما حثّه على محاربة الخرافات، والبدع، التي سادت مجتمع السودان الغربي، في تلك الفترة.

ثانياً، حاول إصلاح المجتمع. فقد لاحظ امتتهان الناس الشعوذة، وسعة انتشارها. فحاربها بشدّة⁽¹⁾، لما فيها من شرك، وما تعكسه من جهل، وتخلف. وحاول جاهدا القضاء عليها.

وحث المغيلي على تخفيف الاسترقاق⁽²⁾. وتصدى للفساد، على جميع المستويات. وهكذا فإنه يتجلى بوضوح من خلال نصحه ملوك السودان الغربي، ومن كتاباته لهم، أن المغيلي كان مطلعاً على سياسة هؤلاء، وعارف الآفات التي كان يعاني منها المجتمع هناك، والتي كانت تباعد بين الناس وما جاء في كتاب الله وسنة رسوله (ص) من صفاء العقيدة واستقامة الفرد، حاكماً كان أو محكوماً.

واستجاب ملوك بلاد السودان لنصائح التلمساني، لفظرهم السليمة⁽³⁾، وتعلقهم بالإسلام، وإجلالهم للعلماء. فاشتهر بينهم، وأصبح يلقب، هناك، بالإمام.

وأدى احتكاك السودانيين بالتجار والفقهاء، والدعاة المغاربة، إلى سيادة المذهب المالكي، في مالي، وكاتم، وغاو. فملك مالي منسى موسى، على سبيل المثال لما زار مصر اقتنى كتباً عديدة، خاصة بالمذهب المالكي، عاد بها إلى بلاده.

كما كان الطلبة يدرسون الفقه المالكي من خلال رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والمختصر في الفقه لسيدى خليل وغيرها. وكان التجار التلمسانيون

1- محمد بن عبد الكريم المغيلي. المصدر السابق. ص. 22 فما بعدها. يعزو البعض انتشار الشعوذة بين سكان السودان الغربي. لوقوع المنطقة على أطراف العالم الإسلامي. من جهة. ولوصول الإسلام إليها في فترة متأخرة نسبياً من جهة ثانية. والمشعوذون أكثر التصاقاً بالعامية من غيرهم فيكون تأثيرهم كبيراً فيهم. ولعل التعلم أجدى الوسائل لمحاربة هذه الظاهرة التي ما زالت متفشية إلى اليوم. في بعض الأوساط. بالعالم المتخلف. فالعلم ينير العقول. والإسلام ينهي عن اللجوء إلى الشعوذة. والفقهاء والمدرسون. يعلمون الناس دينهم. ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر.

2- نفس المصدر. ص. 413.

3- أبو القاسم سعد الله. المرجع السابق. ص. 47.

يصدرون كتب الفقه إلى السودان الغربي⁽¹⁾. فيقبل عليها الناس، ويشترونها بأثمان مرتفعة جداً⁽²⁾.

ونتج عن انتشار الإسلام، في السودان الغربي، انتشار اللغة العربية بين السكان في الحواضر، وفي المحطات التجارية. فالذين يسلمون، ينطقون بالشهادتين، ويقيمون الصلاة باللغة العربية. كما كان القرآن يدرس باللغة التي نزل بها. زيادة على ذلك، فإن المدرسين كانوا مغاربة فقد درس في بلاد السودان عدد من التلمسانيين، ذكرت المصادر البعض من أولئك الذين علموا بمدارس مالي وغانو بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين (الرابع عشر، والخامس عشر الميلاديين) مثل الشيخ اللبان وابنه⁽³⁾، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي⁽⁴⁾ وكان السودانيون يكتبون الآيات فوق الألواح مثل المغاربة. فقد عثر في مدينة كومي صالح، على ألواح حجرية، كتبت عليها آيات قرآنية باللغة العربية.

وكان التجار المغاربة يستعملون اللغة العربية في الأسواق، عند تباعهم مع سكان بلاد السودان الغربي⁽⁵⁾. وكان التعامل بها محدوداً في البداية إذ اقتصر على المتبايعين. ثم نشر التجار المحليون بعض الكلمات والتعابير العربية، فيما بينهم، أثناء الممارسة اليومية في الأسواق، وتسربت تلك الألفاظ إلى اللغات المحلية، وأصبحت جزءاً منها، خاصة أسماء البضائع، والأوزان، والمكاييل، والعملة المتداولة. فهاهنا مثلاً استعملوا كلمة السرج، والحريز، والزعفران، واللحاجم، والقلم، والدواة⁽⁶⁾. وكل هذه السلع كان تجار تلمسان، يصدرونها إلى بلاد

Coudray:op.cit,p.426 -1

2- أنظر: Mauny (R):Les siècles obscurs de l'Afrique noir,Fayard,Paris,1970,p.185

3- ابن بطوطة . المصدر السابق. ص444

4- محمد بن عبد الكريم المغيلي. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. ص9.

5- كان التبادل التجاري في الفترة الأولى. يتم عن طريق ما أطلق عليه التجارة الصامتة. بحيث يضع التجار المغاربة سلعهم في مكان معروف. ويختفون. فيأتي التجار المحليون فيضعون كمية من الذهب بجوار السلعة. ويبتعدون ويعود التجار، فإذا رضوا بكمية الذهب. أخذوه وتركوا البضاعة. وانصرفوا. وإلا فإنهم يختفون من جديد ليزيد من يريد اقتناء السلعة كمية الذهب. وتستمر العملية على هذا النحو إلى أن يرضى الطرفان.

(أنظر: Bovill (E.W): Golden Trade of the Moors,London,1958,p52)

6- استعمل الهاوسا هذه الكلمات مع خريف بسيط(أنظر: السير سيد أحمد العراقي: تجارة القوافل بين شمال وغرب إفريقيا وأثرها الحضاري. في تجارة القوافل. ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر. معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد 1404 هـ/1984 م. ص154.

السودان، وتحمل نفس التسميات، لذا يمكن القول بأنه كان لهم نصيب في نشرها ببلاد السودان الغربي.

كما أدى انتشار الإسلام، واللغة العربية، بين السكان، إلى التفات بعض العائلات إلى هذه اللغة، فدفعوا بأطفالهم إلى تعلمها. وتفوق البعض منهم في الدراسة، وأتقنوا فنون العربية، وأصبح لهم باع كبير في مجال التأليف بها.

واستقر بعض التلمسانيين، في مالي، وسنغاي، من أمثال الأخوين المقرئ، عبد الواحد وعلي اللذان أقاما في إيوالاتن⁽¹⁾، وبعض العقبانيين، والمرازقيين⁽²⁾، والشيخ اللبان، وابنه، والجزولي، وابنه⁽³⁾ وتزوجوا من نساء البلد، وكونوا أسرا مسلمة⁽⁴⁾. فكان الزواج من أهم عوامل نشر الإسلام واللغة العربية وهناك من التلمسانيين الذين أقاموا فترة زمنية محدودة مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي ومع ذلك ترك أثرا كبيرا، فقد كان داعية ومرشدا ومعلما.

كما بذل التلمسانيون جهدا معتبرا، في ميدان التعليم، بالسودان الغربي. فاشتغل عدد منهم بتعليم القرآن، وتفسيره، ورواية الأحاديث، والسيرة النبوية، والمغازي. ولقنوا أصول الدين، والفقه للسودانيين. فالتعليم في تلك الفترة، وفي تلك البلاد، كان يقتصر على العلوم الدينية ويمارس في مساجد المدن الكبرى، وهي: إيوالاتن، وغاو، وجني وتمبكتو. ومن أشهر التلمسانيين الذين اشتغلوا بالتعليم هناك، محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، وقد زار المنطقة في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكان يدرس في مسجد مدينة كانو، ثم في مسجد مدينة غاو، عاصمة مملكة سنغاي.

وكان الشيخ اللبان يدرس القرآن في مدينة مالي. وتلمذ عليه منسا موسى في صباه. ولما أصبح ملك البلاد. قرّبه، وأكرمه، وهاداه، وأعطاه الأموال⁽⁵⁾.

1- المقرئ. المصدر السابق. ج. 7. ص. 132.

Coudray, op.cit, p. 247-2

3- ابن بطوطة. المصدر السابق. ص. 444.

Coudray, op.cit, p247 -4

5- ابن بطوطة. المصدر السابق. ص. 450.

وكان ابن هذا الشيخ أيضا يعلم القرآن بمدينة مالي⁽¹⁾. كما كان التجار التلمسانيون يصدرون كتب الأدب إلى السودان الغربي⁽²⁾. واقتبس السودانيون الحرف العربي، وكتبوا به لغاتهم المحلية، كالسواحلية والهاوسا. ودوّنوا تراثهم الذي بقي يروى شفويا، قرونا طويلة.

وهكذا فإن التلمسانيين دخلوا، مثل غيرهم من المسلمين، المغاربة والمشاركة، بلاد السودان الغربي، تجارا وفقهاء، ومعلمين، فساهموا، كل في تخصصه، في ترقية تلك البلاد، فالتجار الذين كانوا يمثلون الأغلبية، حملوا معهم إلى هناك، مواد فلاحية وحرفية، غيرت من مظاهر الحياة اليومية للسودانيين، ورفعت من ذوقهم؛ فتركوا جانبا من بدائيتهم. ونشر الفقهاء الإسلام بين الناس، فأخرجوهم من ظلمات الوثنية. إلى التوحيد. واجتهد المعلمون في نشر العلم، ومكافحة الجهل، ومحاربة الشعوذة التي هي قمة التخلف. ففتحوا أمام الناس، هناك، أبواب التطور، وبنوا فيهم أسباب الحضارة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. فتطورت المحطات التجارية إلى مدن وحواضر، واتحدت القبائل في دول كبيرة وأصبحت جزءا من العالم الإسلامي.

1- نفسه.

2- Coudray, op.cit, p. 426

1- المصادر والمراجع باللغة العربية:

- الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني المسمى الشريف الإدريسي)، وصف إفريقيا الشمالية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صححه ونشره هنري بريس، طبعة الجزائر، 1957.
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي): الرحلة المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- البكري (عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (وهو جزء من المسالك والممالك)، نشره البارون دوسلان، طبعة الجزائر، 1957م.
- حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، 1964.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء السابع، طبعة بيروت، 1959 و1978.
- ابن خلدون (أبو زكريا يحيى)؛ كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الثاني، تحقيق ألفرد بل، طبعة الجزائر، 1910م.
- زبادية عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين 1591-1493م، الجزائر، 1971م.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، وهو بحث في تيارات الثقافة ومؤثراتها، ومؤسستها وظواهرها، ورجائها، في العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، الطبعة الثانية، 1985.
- السير سيد أحمد العراقي، تجارة القوافل بين شمال وغرب إفريقيا، وأثرها الحضاري في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ/1984م.
- الشيخ الأمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي، وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، في تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404 هـ/1984
- العقباتي التلمساني (أبو عبد الله محمد بن محمد بن قاسم بن سعيد)؛ كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المنكر. في

Bulletin des études orientales, tome XIX, année 1965-1966, Institut français de Damas, Damas, 1967.

- قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية، القاهرة، 1975.
- القلقشندي (الشيخ أبو العباس أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1333هـ/1915م.
- مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحيدي وبني مرين، الجزائر، 1982.

المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- المقرئ (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني، المالكي، شهاب الدين)، كتاب نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، طبعة القاهرة.

2- المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

- Bovill (E.W) : Goldrn Trade of the Moors, London, 1958.
- Cornevin (R):Gao,article dans E.I,T2,nouvelle édition
- Coudray: Relations commerciales de Tlemcen avec le Sahara et le Soudan,dans Bulletin de la société de géographie d'Alger,2^{ème} année,1887
- Cuq (Joseph): L'Islamisation de l'Afrique de l'ouest, Paris,1984.
- Devisse (j): Routes et échanges en Afrique occidentale en relation avec la méditerranée, dans Revue d'Histoire économique et sociale, Paris,1972, n°1.
- Dhina (Atta Allah): Les états de l'occident musulman aux XIII, XIV, XVsiècles, Institutions gouvernementales et administratives, Alger,1984.
- Delafosse (Maurice); Souhai, article dans E.I, T.4, Nouvelle édition.
- Godinho(V.Magalhaes):L'Economie de l'Empire portugais aux XV^{ème} et XVI^{ème} siècles, Paris, 1969.
- Labouret (h) : Mali, article dans E.I,T4, nouvel édition
- Léon L'Africain: Description de l'Afrique, nouvelle édition, traduite de l'Italien par A.Epaulard, Paris,VI,1956.,
- Lessard (Jean- Michel) : Sijilmasa, la ville et ses relations commerciales au XI siècle, d'après El- bakri, HesperisTamuda, Volume 10, fascicule 1-2,1969.
- Mauny (R): Le Soudan occidental, à l'époque des Empires, dans Histoire générale de l'Afrique noire, Presses Universitaires de France
- Mauny (R): Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen-âge, Dakar,1961
- Mauny (R): Les siècles obscurs de l'Afrique noir, Fayard, Paris,1970,
- Omari (Ibn Fadhl-Allah): Masalik al-Absar fi mamalik al-amsar, T.1 L'Afrique moins l'Egypte,Traduit et annoté par Gaudetfroy-Demonbyne, Paris,1927.
- Whitting (J): Bornu, article dans EI,T.1, nouvelle édition.

==00==
